مجلة إشكالات في اللغة والأدب — مجلد: 12 عدد: 1، مارس 2023
ص: 267 - 279 — E ISSN: 2600-6634 / ISSN:2335-1586

صورة الآخر في رواية القصر ليوسف العيشي ميمون

The image of the other in the novel The Palace by Youssef Al-Aishi Maimon

ط.د/ حاشي محمد نصر الدين[1] * / أ.د/ بوطرفاية مصطفى[2]
HACHI Mohamed nacer eddine[1] / Pro. BOUTERFAYA Mostefa[2]
مخبر الخطاب الحجاجي.
جامعة ابن خلدون- تيارت / الجزائر.
Ibn khaldoun University of Tiaret / Algeria.
Nacereddine.mohamed@univ-tiaret.dz[1] / mostefabouterfaya@yahoo.fr[2]

تاريخ الإرسال: 2022/08/02	تاريخ القبول: 2022/10/15	تاريخ النشر: 2023/03/02

ملخص البحث

الصراع بين الأنا والآخر صراع طويل، يمتد لبدايات وجود الانسان على سطح الأرض، حيث تعدّ ثنائية الأنا والآخر من أبرز القضايا التي اهتم بها الأدباء والنقاد في مجمل إبداعاتهم، باعتبارها قضية إشكالية تعكس مدى التأثير والتأثر الذي أحدثته الأنا والآخر في بعضها، فلا يكاد يخلو أيُّ خطاب من الخطابات الإبداعية عامة والروائية خاصة من تمثيل الذات أو الآخر، فالتمثيل هو الذي يعطي للجماعة صورة عن نفسها وعن الآخر، ويضمُّ الأدب الجزائري المعاصر العديد من النماذج التي حمِلتْ فكرة التقابل بينهما كمنهج لها.

وقد سلطت هذه الورقة البحثية انشغالنا في هذا المجال على إبراز صورة الآخر في الأدب الجزائري من خلال استعراض صورتي الأنا والآخر بمختلف أشكالها عبر رواية القصر (سيرة دفتر منسي) خصوصا وأنه قدم طرحا جديدا لرواياته ناقلا لنا عبرها صورة الفضاء الصحراوي بعمق، مع وصف للجانب التراثي و الديني بامتياز.

الكلمات المفتاح : صورة، ذات، آخر، صراع، تعايش، تأثير وتأثر.

Abstract :

The conflict between the ego and the other is a long struggle, extending to the beginnings of human existence on the surface of the earth, where the pair of the ego and the other is one of the most prominent issues that writers and critics have taken care of in their overall creativity, as it is a problematic issue that reflects the extent of the effect and influence that the ego and the other have had on each other.

Hardly any discourse is devoid of creative discourses in general and the novelist in particular from the representation of the self or the other.

Representation is what gives the group an image of itself and the other.

* حاشي محمد نصرالدين: Nacereddine.mohamed@univ-tiaret.dz

Modern Algerian literature includes many models that carry the idea of the encounter between them as a method

This research paper highlighted our preoccupation in this field with highlighting the image of the other in Algerian literature by reviewing the images of the ego and the other in its various forms through the novel "the palace" (Biography of a forgotten notebook), especially since the latter presented a new proposal for his novel, conveying to us through it the image of the desert space in depth, with a description For the traditional and religious aspect par excellence.

Keywords: : Image, self, other, conflict, coexistence, influence and vulnerability.

مقدمة

تعدّ دراسة صورة الآخر فرعا من فروع الدراسات المقارنة، الذي شهد تطورا ملحوظا في الفترة الأخيرة بسبب تلك الرغبة في تحقيق التفاهم والتعرف بين الأمم والدول، ويتم ذلك عبر دراسة مختلف الصور المقدمة في الآداب القومية الصادرة عن الشعوب الأخرى، سواء أكانت هذه الصور إيجابية تساعد في نشر التفاهم بين الدول، أو تحمل نظرة سلبية تسيء للآخر.

تضمنت نصوص روائية جزائرية كثيرة مشاهد تُصور العلاقة بين الأنا والآخر، وكان متْنُ روايّة القصر " سيرة دفتر منسيّ " محور بحثنا للكاتب الجزائري يوسف ميمون، فلم تكنْ كباقي المدونات الأدبية التي تناولت صورتي الأنا والآخر بمختلف أشكالها فحسب، بل كانت متن منفرد عن البقية بحكم أنها توّجتْ بجائزة النبراس الوطنية للإبداع الأدبي بعد سباق مع أكثر من خمسين رواية، كما أنها مثلثْ وبشدّة البعد التاريخي والمكاني للمنطقة، فنجدها قدمت تعريفا للمناطق، شاملة للعادات والتقاليد والآثار الدينية بشكل ماتع للقارئ، فهي بمثابة نافذة ترويجية للمنطقة ككل، فتناولناها بالدراسة والتحليل من خلال استقراء صورة الآخر، ومقارنة الأنا والآخر من ناحية التعايش والصراع وعنفها، و انطلاقا مما سبق تحاول هذه الورقة البحثية الإجابة عن التساؤلات الآتية:

كيف عالج الروائي يوسف ميمون إشكالية علاقة الأنا والآخر في شقّيها المحلي، أي بين أبناء الدشرة الواحدة (الأنا والآخر المحليين) وبين الآخر الأجنبي الوافدين عليهم (الأنا المحلي والآخر الأجنبي)؟

سلكنا في بحثنا هذا المنهج التحليلي المقارن، الذي حاولنا من خلاله تحليل صورة الآخر في الرواية، بهدف الوقوف على أدقّ تفاصيل الواقع المعيش كما نسجها الكاتب، والإدراك الجيد للعلاقة مع الآخر آنذاك بمختلف تمثلاتها، حيث تساعدنا هذه الصور المكتشفة على رصد مواطن التشابه والاختلاف بين الثقافات، مما يُنتج وعيا بالاختلاف وإدراكا للتعددية التي تؤسس للوجود الإنساني، فيتم قبول الآخر بشكله المختلف والتعايش معه وفق ما يتطلبه الامر، وبالتالي تترسخ ثقافة القبول وتُلغى ثقافة الإقصاء.

ولقد قسمنا بحثنا هذا إلى محورين الأول نظري والثاني تطبيقي، بالإضافة إلى مقدمة وخاتمة.

تطرقنا في المحور الأول إلى تحديد مجموعة من المفاهيم والمصطلحات على سبيل المثال: الصورة، الآخر، صورة الآخر، الصورة الأدبية ثم جدلية الأنا والآخر، أما في المحور الثاني فقد كان مخصصا لتطبيق ما تم تناوله في المحور الأول النظري من بحثنا هذا، فقمنا باستقراء أوجه ظهور الآخر، و تمثيلات صورة الآخر، كما تمت دراسة أهم الشخصيات الممثلة للأنا والآخر، والعالقة بين الأنا والآخر، ثم وقفنا عند تجليات الصورة النمطية المعتادة، وأخيرا كانت خاتمة بحثنا المتواضع هذا بذكر ما تم الوصول إليه من نتائج.

أولا: مفاهيم

1/ الصورة:

تنوعت التعريفات اللغوية للصورة لكنها لم تختلف في تحديد ماهيتها، حيث جاء في لسان العرب لابن منظور " مادة (ص.و.ر) أي تصورت الشيء، توهمت صورته، فتصور لي".[1]

وفي أسماء الله الحسنى: المصوّر هو الذي جمع الموجودات ورتبها فأعطى كل شيء منها صورة خاصة وهيئة مفردة يتميز بها على اختلافها وكثرتها.

وجاء في المصباح المنير مادة (ص.و.ر) " صورة التماثيل وجمعها صور مثل حرفة وحرف وتصورت الشيء مثلت صور له وشكله في الذهن فتصور هو وقد تطلق الصورة ويراد الصفة كقولهم صورة الأمر كذا، أي صفته ومنه قولهم صورة المسألة كذا أي صفتها"[2]

اما اصطلاحا فالصورة هي تعبير عن ذلك البعد الدلالي بين ثقافتين أو مجتمعين مختلفين، فهي تنشأ بين الأنا مقابل الآخر، ويمكن القول أنها تلك الصورة الذهنية التي يكوّنها شخص أو مجتمع عن ثقافة ما تختلف عنهم، فيستطيع من خلالها كشف وترجمة ثقافة بلده أو المكان الذي ينتمي له.

2/ الأنا:

وردت كلمة الأنا في معجم الوسيط بمعنى " ضميرُ رفْعٍ منفصِلٌ للمتكلم، أو المتكلمة "[3]

فالأنا هو وصف للشخص المؤنث أو المذكر على حد سواء مصوراً لذاته وعاكسا لشخصيته.

وهذا ما جاء في معجم المحيط : " ضمير رفع منفصِلٌ للمتكلم مذكراً ومؤنثا، مثناه وجمعُه نحن ".[4]

أما مدلول الأنا اصطلاحا فيرى سارتر أنه عُولِجَ ضمن علاقته بالآخر فيقول: " محتاج من الشخص الآخر اعترافا بوجودي، إنه الوسيط بيني وبين نفسي، وليس في كل الأحوال أن يبقى الأنا، أنا، فهو آخر بالنسبة للآخر "[5] فالأنا حسب سارتر يعتبر آخر بالنسبة للبقية، فعلاقتهم متصلة ولا يمكن تخيُّل أنا من دون آخر.

3/ الآخر:

تعدّ لفظة " الآخر" قديمة قدم وعي الانسان باختلافه عن غيره، ولقد طرأت عليها عدة تغيرات، فانتقلت من كونها مجرّد لفظة، وأصبحت مصطلح له معانٍ ودلالات في العلوم الانسانية، بحيث أصبح مفهوما متداخلا مع مفهوم الذات التي لا تحقق وجودها إلا بوجود الآخر.

يُعرف مصلّح النجار " الآخر" بأنهم فرد أو جماعة لا يمكن تحديدهم إلا في ضوء مرجع هو(الأنا)، فإذا حدّدنا هوية الأنا كان الآخر فرداً أو جماعة يحكم علاقته بالأنا عامل التمايز، وهو تمايز إطار الهوية أحيانا والإجراء في أحايين أخرى.[6]

إذاً لا وجود لآخر دون وجود أنا فلا بد من توفر شرط الاختلاف والتمايز حتى يمكن التفريق بينهما، كلاهما يحدد غيره ويحيل إليه، فبمجرد قول عبارة صورة الآخر يتبادر مباشرة إلى الأذهان مفهوم الذات أو الأنا. ومما يجب الوقوف عنده في هذا المقام هو أن قضية الأنا والآخر لا ترتبط دائما بوجود علاقات ثقافية فقط بين الطرفين وإنما يتسع المجال ليشمل العلاقات بين الجنسين (ذكر- أنثى).

4/ صورة الآخر:

قبل اللجوء إلى دراسة صورة الآخر يجب التأكيد على نقطة مهمة وهي أنّ نفي الآخر وعدم الاعتراف به هو نفي للذات، وذلك من منطلق " أن الإنسان لا يمكنه العيش مستقلا بذاته، فهو من دون شك بحاجة ماسة إلى إنشاء علاقات مع غيره تشعره بالسكينة والهدوء، وتسهل عليه مرارة العيش وحيدا منعزلا عمن يحيط به"[7]

إن صورة الآخر إذن في الواقع ما هي إلا انعكاس لخلفيات الأنا وآرائها اتجاهه، وهي بهذا المفهوم صورة ترتبط ارتباطا قويا بالمواقف السلبية أو الإيجابية التي تنتجها الذات عن الآخر والتي تصبح فيما بعد بمثابة العماد التي تستند إليه الأنا في رسم علاقاتها به وتحديد طريقة تعاملها معه ومنه يمكن إدراك نسبة التفاعل التي قد تنتج بينهما.

إن عملية تكوين صورة الأخر هي عملية فردية أو جماعية تختلف فيها الجوانب التي قد تساعد في معرفة الآخر واكتشافه، إذ يمكن للأنا أن تعتمد في محاولاتها لاكتشاف الآخر على الجانب المجتمعاتي بما فيه من عادات وتقاليد متوارثة وسلوكيات معتادة مختلفة بالمقارنة إليها، كما يمكنها أيضا أن تستند في ذلك على الجانب الأدبي وهذا من خلال النص الإبداعي الذي يعكس بشدة ثقافات أي مجتمع، فهو مرآة عاكسة لقضايا هذا المجتمع وظواهره، وبالتالي فهو قادر على أن يكون تعبيرا عن الآخر من جهة، وممثلا لبعض الانطباعات عن الذات من جهة أخرى، فالأنا تستقي محددات الآخر من مصادر كثيرة، اجتماعية أو تاريخية أو ثقافية و أدبية، لتكون في الأخير صورة كلية عنه تعيد تشكيلها وفق وجهة نظرها الخاصة المحتكمة لخلفيات متنوعة.

5/ الصورة الأدبية:

الصورة الأدبية تتمثل في كل ما يصدرُ من الأديب أو الباحث المقارن في رحلة بحثه عن الآخر على اختلاف الحضارات والدول واللغات بين الشعوب والأمم، فكل ما يصدرُ منه في سبيل ذلك من نصوص وروايات وحتى شعر يندرج ضمن الصورة الأدبية فهي تحمل ضمن طيّاتها الكثير من الأفكار حول الآخر، وأوجه التقاطع ومواطن الاختلاف ... الخ.

إن دراسة الصورة الأدبية للآخر يستوجب بالضرورة أن تكون الذات متفتحة على الآخر، غير منغلقة على نفسها، لأن انفتاحها على الآخر ودراستها له - بتوفر الرغبة في التعرف عليه - يساعد في التعرف على الثقافات

المتنوعة التي تختلف بشكل أو بآخر عن ثقافتها وهويتها، بل إنه يجعلها أكثر إدراكا لسلبياتها إذْ ما كان هذا الآخر متغلبا عليها، أو لمواطن قوتها في حالة ما كان متخلفاً عنها، كما قد تساعدها في التعبير عن الأحاسيس المكبوتة تجاهه، فالصورة الأدبية هي مجموعة انفعالاتها به، وبما أن من الأفكار التي تصِفُ الآخر وترسم صورة له، فكما يجبُ أن تُثبت عندما تنقل صورة صحيحة واقعية للآخر، فلا بُدّ لها أن تُصحح في حالة ما نقلت صورة سلبيّة مشوّهة عنه.

6/ جدلية الأنا والآخر:

الحديث عن الآخر يعني بالضرورة اكتشاف الذات، وعلاقة هذا الذات مع الآخر قد تكون سياسيا، حضاريا، اجتماعيا، وثقافيا، فهذه العلاقة قائمة على أساس أن الذات هي المكوّن الأساسي في حركة الفكر والثقافة بشكل عام وهي الأصل، والآخر مجرد ظل لهذه الذات وهو فرع عنها ، وتظل العلاقة بين الأنا والآخر علاقة جدلية افتراضية، فقد تكون الأنا على حساب الآخر أو إلغاء الآخر لصالح الأنا، وهذه العلاقة قائمة على ثنائية الأشياء، وعلاقة التضاد القائمة بينها، واستحالة الدمج بين هذه الثنائيات، مثل الحياة و الموت، والخير والشر، و الصواب والخطأ، والذكورة والأنوثة، إلى غير ذلك من العلاقات الثنائية والضدية التي تحكم منطق الأشياء.

والصراع بين الأنا و الآخر، صراع طويل يمتد إلى البدايات الأولى لوجود الإنسان على هذه البسيطة، ويدخل في أخص العلاقات الإنسانية، كما كانت بدايته في الصراع بين الأخوين قابيل وهابيل، وقد تقترب هذه الغيرية أو تبتعد بين الأطراف، ولكنها لا تُلغى بل تبقى قائمة، لأن العلاقات الإنسانية بطبيعتها قائمة على أساس التغاير لا التمازج، وفقا للمصالح الذاتية و الاعتبارات الخاصة التي قد تقترب أو تبتعد من مصالح الآخرين واعتباراتهم الخاصة، وقد عبر الشاعر الألماني "غوته" عن ذلك وهو يتحدث عن ذاتية اللغة الألمانية بالنسبة له وغيرية اللغات الأخرى، يقول : " أنا أحب الألمانية ولا يمكن بأي حال من الأحوال أن أحب الفرنسية، ولكني أفهم حقيقة أن الفرنسي يحب الفرنسية ويعيشها، ولا يمكن أن يحب الألمانية كما يحب لغته القومية "[8]

ثانيا: الجانب التطبيقي

1/ ملخص رواية القصر "سيرة دفتر منسي" :

رواية "القصر" هي رواية تقرأ الفضاء الصحراوي بعمق، وكانت أنموذجا شبابياً واعداً لتسريد الصحراء، وجاءت في 192 صفحة، في طبعة أولى عن دار النشر منشورات الوطن، طبعت كجائزة للفوز بالمسابقة الوطنية للإبداع سنة 2020 من تنظيم جمعية النبراس الثقافي لبلدية سطيف، قسمها الروائي إلى سبعة فصول وهي بالترتيب (الفقد، المنجم، دفتر منسي ، سيليكوز، قرار، مارغريت، رقصة الهوبي، الجوبتا ، الدفين)، تتأرجح هذه الفصول بين الواقع والمتخيل، لتحكي الواقع الذي يعيشه سي محمد وهو مهدد بالسجن بسبب تراكم

ديون علاج زوجته زينب من مرض السرطان، الذي سرقها وهي لا تزال صغيرة مع عائلته، ابتسام طالبة بجامعة طاهري محمد تخصص طب، وصفية طالبة سنة الثالثة ثانوي .

والمتخيل وهو سيرة والده سي مختار التي يكتشفها بعد أن يعثر صدفة على مذكرات والده في دفتر منسي مكتوب عليه "القنادسة 1971" مدفون في سرداب المنزل ، فيتعرف من خلاله على والده الذي رسمه في ذاكرته على أنه مجرد اسكافي لا علاقة له بالتعليم، كما قالت له والدته مسعودة، ليكتشف الحياة الصعبة التي عاشها والده في أسرة تتكون من والده سي عبد الله الذي توفي بمرض الربو ورثه من منجم الفحم، الذي كان تحت سيطرة الاستعمار الفرنسي، وأخته علياء التي سارت على خطى والدها لتودعهم بعد سنة فقط بسبب نفس المرض وهي بنت العاشرة من عمرها، ولم يتبقَ له من هذه العائلة سوى أمه فريحة التي أكل الدهر على قلبها وشرب وخرفت قبل أوانها " الخرف المبكر"، وبما أنه الوحيد الذي يعتني بها وقع في مشكلة في العمل مع المكلف بالعمال لتكون سبب تعرفه على مديرة المنجم سيدة أجنبية بشعر أصفر ، وعينين زرقاوين وقامة طويلة لتتولد قصة حبّ بين سي مختار ومديرة المنجم "مارغريت " وتنتهي قصتهما برحيل مارغريت إلى بلدها بسبب مرض والدتها بعد أن وعدته بتحميض صورتها والعودة، لكنها لم تفعل، فبعد سنوات وبسبب تطور حالة فريحة يتزوج سي مختار مسعودة ابنة الجيران لتعتني بأمه، وبعد وفاة أمه ولِدَ له ابنه البكر محمد، بعد مدة وبسبب المشاكل المتراكمة طلّق سي مختار مسعودة وهي حامل لِتعود بمحمد لبيت أهلها ليلتحق سي مختار بالجيش بعد دفنه الدفتر وقلادة مارغريت داخل سرداب في غرفة منزله بعد أن وضعها داخل صندوق خشبي ولفّه في عمامته، ليكتشف سي محمد في آخر الدفتر أن هناك كنز أثري "الجوبتا" مدفون بزريبة منزله، تركته مارغريت عند سي مختار وأثناء استخراجه للكنز وفي الوقت نفسه تحضر ابنة أخت مارغريت "ميشيل "مع ابنه إبراهيم الذي تعرف عليها في رحلة سياحية بتاغيث بعد أن كانت تبحث على سي مختار لتعطيه صورته مع خالتها مارغريت، ليكتشف إبراهيم أن الصورة تعود لجده سي مختار بعد أن تعرف على قلادة مارغريت في الصورة، ومن أهم مميزات الرواية نجد الطابع الاجتماعي العميق والذي يشكل حجر الزاوية في الرواية والجانب التراثي والديني حيث تنقلنا إلى عوالم الصحراء بتراثها وإرثها الحضاري وعوالم الزوايا، ودورها الديني والثقافي والجانب الفني للرواية من حيث تماسكها البنيوي وتجربتها في الأسلوب وتقنيات الزمن في عرض الذاكرة بعيون الحاضر، ومن حيث البنيات الفنية والنفسية للشخصيات.

شحن يوسف العيش ميمون روايته (القصر) بالكثير من الدلالات والقيم التي أطّرت علاقة " الأنا " و " الآخر " ، وزادت من فرص فهم ودراسة صورة الآخر، والتي تسهل فهم الذات وتساعد على نضج الشخصية الفردية على المستوى المعرفي والإنساني ، وكانت علاقة الأنا والآخر في الرواية ممثلة في :

2/ نظرة الشفقة للآخر:

مثلتها ابنة محمد : ابتسام لمّا استرجعت شريط ذكرياتها قبل وفاة أمها زينب، فقد نزلت للسوق بغرض تلبية وصية والدتها لشراء ستائر، حيث كانت لا تملك من المال إلا ما يكفيها لشراء الستائر كانت تسلمته من

والدتها زينب، فصادفت طفل صغير جاء للسوق حديثا يبيع الفشار، كانت تجارته كاسدة، فأشفقت لحاله وحال والدته بعد أن يعود إليها مساءً خالي الوفاض مُحملا بسلعته ولم يبعها.

مشت بضع أمتارٍ ثّم لفتها صبيّ صغير يبيع الفشار، كانت أكياس الفشار مكدسة على الطاولة وفكرت ابتسام : " هذا الوجه جديد على السوق، يا له من مسكين، هل سيعود بكل هذه الأكياس ؟ بالتأكيد ستفكر والدته بأن المشروع فاشل ولن ترسله الأسبوع القادم، كيف سيعود بهذا الحمل كله؟ وكيف سيتبادل النظرات مع أمه؟ " [9]

فكرت ابتسام وهي تفتح حقيبة يدها، أبعدت المرآة وبطاقة الحساب البريدي، تحققت من المبلغ الذي سلمته لها زينب، لم يكن المال كافيا، وقد لا يكفي لشراء الستائر حتّى، فتذكرتْ أنها لا تملك أي مال، وقد كانت نيتها مساعدة الطفل المسكين الذي أشفقت لحاله، فنسحبت منه دون لفت نظره لمّا غادرت لكي لا تُحبط من معنوياته ، حتى وصلتها رسالة بهاتفها مفادها بأنها تلقت منحتها الجامعية في حسابها البريدي، فتناولتها منهم وعادت على جناح السرعة قاصدة بائع الفشار، فاشترت منه نصف سلعته، لأن نظرتها المُشفقة نحوه عندما كانت بدون مال، لم يُبرِدْ غليلها إلا عندما اقتنت منه نصف سلعته لمّا تسلمت منحتها رغم عدم حاجتها للفشار، فوزعته على الأطفال الحاضرين ولا همَّ لها حينها إلا ابتسامته البريئة.

فطفولتها القاسية جعلتها تُحسُ بالطفل البائع البائرة سلعته وبأمه المسكينة التي تنتظر عودته محملا بخبر يُفرحها بنجاح مشروعها، وعادات أهل المناطق الصحراوية وتربيتهم لم تكن لتسمح لها بترك الطفل الفقير يصارع وحيدا دون أن تُقدم له يد العون وفق مقدورها.

" ...خرجت بسرعة إلى أقرب مركز بريدي، سحبت مبلغ المنحة من آلة السحب وعادت بنفس السرعة، توجهت مباشرة إلى الصبي بائع الفشار، واشترت منه نصف سلعته التي راحت توزعها على الأطفال أثناء تجوالها في السوق... غادرت وبائع الفشار يناظر كيسين وحيدين وسعادته تكاد تفر من عينيه "[10]

وبالفعل نجحت ابتسام في رسم البسمة على الصبي فبعد أن كان حائراً صارت السعادة تملئ قلبه و ناظريه.

3/ الآخر المُعزون لوفاة زينب ونظرة المؤلف لهم:

كعادة كل مأتم يتبادر الحضور أفواجا لبيت المتوفي قصد مواساة أهله، والترحم على الميت والدعاء له، حيث يعتبر من العادات الراسخة في قيمنا و مجتمعنا ومن تعاليم ديننا، كحال أسرة محمد المتوفية زوجته (زينب) حديثا، حيث توافد المُعزين من كل حدب و صوب على اختلاف شرائح المجتمع فكلٌ واهتماماته آنذاك، فليس الجميع على نفس القدر من النية في مواساة أهل الميت فنجد من يبتغي مصلحة وراء ذلك سواء دنيوية أم غير ذلك حيث قال :

" لفظ أصحاب البذل أولا من يوهمون الناس بأن توقيت الصلاة فرض عليهم المغادرة، هؤلاء لا يظهرون إلا ساعة يعوّلون على أمر سياسي قد يُعدُ هذا تخطيطا مُحكما لانتخابات قادمة لا أحد يعلم، ثم لفظ بعض

أصحاب المواعيد الذين لم يجدوا مكانا يقفلون فيه صفقة ما غير خيمة العزاء، ثم المتملقون أولئك الذين تجدهم في أي عزاء، لعلهم يصادفون فيه مسؤولا يقدمون له فروض الطاعة" [11]

ومنهم من لا يعرف أهل الميت فهم غرباء لا همَّ لهم إلا تحصيل الأجر وراء ذلك : " ثمَّ الغرباء الذين حضروا الجنازة ليقوا القراطين بعد أن تجنبوا الطابور الطويل في المقبرة " ومنهم من يطمح لتحقيق بعض الحسنات لروح والده المتوفي صدقة عليه :

" بجانب الخيمة خزان ماءٍ لا يتوقف عن التنقل من حي إلى آخر، يتصدق به صاحبه على روح والده في كل جنازة، وتراه يحثُّ الناس على أن يغترفوا منه، تشعرُ وكأن روح والده لم تصعد بعدُ إلى السماء، بل تقف على رأسه كمدربٍ يودُ لو يحرز هدف التعادل في الوقت بدل الضائع "[12]

وأخيرا نجد الجيران والأقارب والمشردون الذين لا مأوى لهم : " بعدهم الجيران الذين لطالما كان انسحابهم بطيئا من الخجل، ثم الأقارب من يحملون نفس الكنية، وأخيرا المشردون الذين توضموا وتناولوا الشاي، فلم يجدوا بعد ذلك مكانا يتساوون فيه مع الخلق غير خيمة العزاء ."[13]

/ تحول الأنا لتُصبح الآخر:

مثّلها الكاتب بعبارة : " لقد تحولتُ أثناء فترة مرضها، إلى فريحة نفسها " [14]

عبارة قالها مختار بكثير من الحسرة بعد أن كبرت والدته فريحة في السن، ونالت منها بعض الأمراض مما سببتْ لها عجز جعلها لا تقوى على القيام بدورها كأم تعتني بولدها وبيتها، بالاضافة إلى إصابتها بمرض الزهايمر أو الشيخوخة المبكرة فصارت لا تتذكر ولدها إلا بصعوبة بالغة، كل هذا الأمر جعل مختار يتسلم زمام أمور البيت ومسؤوليته الداخلية، فبعد أن كان يعمل خارجا في المنجم ليحضر مصاريف البيت، امتدتْ مسؤوليته إلى داخله أيضا، فصار يكنس ويطعمها ويُنظفها ...الخ

" حتى بتُّ على يقين بأن ثمّة خطب ما في فريحة، وكأنّي بها خرفت قبل أوانها، لم تكن فريحة في سن كبيرة حتى تفقد ذاكرتها بهذا الشكل، ما جعلني أطلق على حالتها بالخرف المبكر، حين لم أجد له تفسيراً آخر، كوني لم أسمع بحالة مشابهة تحدث في حيّنا ولا حتى في البلدة، سوى لأولئك الذين طعنوا في السن " [15]

فهته الحالة نلاحظ أنه تمّ استبادل الآخر (الوالدة فريحة) ليصبح مختار (الابن) بدلا عنها، فهو حلّ محلها بقيامه بواجبات البيت كلها.

" وفي كل مرة كان وضع والداتي يزداد سوءاً، حتى صارت تسألني عن نفسي وعمّن أكون، فأظل معها إلى أن تتذكرني، لقد عانيتُ كثيرا طيلة هذه المدة ". [16]

ولكن متى تتحول الذات إلى آخر ؟ فكل ذات تصبح آخر عندما تصبح موضوعا لذات أخرى.

إذن فإن عدد الآخرين بالنسبة لي يساوي عدد الذين هم على علاقة معي، إنهم موضوع حب وكره ومصلحة و شعور بالانتماء والقرابة و صلة الرحم.

فحالتنا هنا (علاقة الولد بأمه) لقوتها ومتانتها أصبحت لا فرق بين الأنا والآخر ولا حرج في التبادل بينهما إذا اقتضت الضرورة ليصبحا واحد (برّ مختار بأمه) حيث حلّ محلها بدون أي تردد لمّا احتاجته، ليعوّض ولو شيئا بسيطا من جميلها السابق.

حيث يقول : " كنت أطبخ وأكنس وأنظف، بصراحة لم أصدق كيف تسنى لها أن تتحملنا كل هذا الوقت، فسرعان ما كنتُ أتعب أو ينتابني الملل، فأؤجل بعض الأعمال، لكنني في الأخير كنت أعود إليها مرغما، فلا أحد يمكنه أن يخدمنا غيري " [17]

5/ الآخر الانساني المُساعِدْ:

مُمثلة في شخصية دحمان ذلك الجار الطيّب، الذي لطالما قدّم يد المساعدة لمختار وعائلته لكونه يملك محلا تجاريا في الحي فكان مختار لا يتردّدْ في أن يقترض منه ما يحتاج لغاية تيسر أموره، وكان أيضا مثقفاً جدا، دائم المطالعة لا يتوانى أهل الحيّ في استشارته والاستفادة من خبرته

" كان عمي دحمان عجوزاً طيباً جدا، يفضل الحديث كثيراً خاصة إذا ما تعلق بتاريخ البلدة، فتجده يسرد ويسرد ولا يتوقف وكأنه يؤلف قصة المنطقة كلها، أحيانا يصل به الأمر إلى أن يوزع من جاء ليشتري منه فقط كي يواصل حديثه " [18]

أيضا كان لا يتوانى في تقديم المساعدة كلما هرع له مختار طالبا عونه، حيث لجأ إليه لمّا توفي والده عبد الله مفجوعا به، وبع أن تأكد من وفاته قدّم له واجب التغسيل والمواساة بما يقتضيه واجب التعزية.

" توجهت نحو عمي دحمان أخبره بالأمر، وسرعان ما ارتدى عباءته وعاد معي إلى المنزل، أخذت له طريقا ودخل إلى مضجع والدي، تلمسّه كثيرا قبل أن يقول مؤكداً : " إنا لله وإنا إليه لراجعون " ثم انتظر معي حتى طلع ضوء النهار وخرج في ساحة الحيّ بالقصر يذيع الخبر مرت ساعة تقريبا ثم عاد عمي دحمان وبعض الرجال من الجيران، غسلوه داخل الغرفة ".[19]

إلا أنَّ شخصية دحمان كان يُعاب عليها بأنها لا تغيب عنها لا شاردة ولا واردة من أخبار الحيّ، فهو يجيد كشف كل مستور ومُخبئ عنه.

" لقد كان عمي دحمان محطّة أخبار الحيّ كلّه، كان يعلم بكل شاردة وواردة بين جدرانه، والسبب في ذلك أن الجميع كان يحترمه هنا، فلا يُخفون عنه شيئا، وحتّى وإن حاولوا فأنا متأكد من أنهم لن يفلحوا، في الحقيقة كان يصلح لأن يكون محققاً في مكتب مخابرات ما، ومتأكّدٌ من أنّ المتهم كان سيُقِرُ بجرائمه حتى وإن لم يرتكبها، كان لا يأسر أيّ سؤال ويتركه طريح لسانه، يلقيه في حجرك كالجمرة فتعيده وقد تحول إلى إجابة من فرط لسعها، لقد كنّا جميعا نخجل من تجنبّ إجابته أو الكذب عليه، لأنه سيكتشف أمرنا عاجلا كان أم آجلا".[20]

إلى درجة أن صار دحمان مضرب المثل في موضوع بحثه الدائم عن خصوصيات الناس وأخبارهم فمختار في أحد المواضع خاف على نفسه أن يلحق به هذا الفعل قال: " لكنّني كنتُ دائما أخشى ... أن تلبسني روح عمي دحمان فأتحول مثله إلى علامة استفهام، وأجدني أسأل عن كل شيء وأحاول أن أعرف كل شيء ".[21]

6/ صراع الذات مع آخرِها:

هل يمكن أن يتصارع الإنسان مع نفسه؟ أو بالأحرى ينقسم الإنسان إلى (ذات وآخر) في الوقت نفسه، بل ويتولد صراع بينهما كلٌ وهدفه، ومن المؤكد أن الذي يؤرق هو الشخص نفسه حصيلة هذا التجاذب والصراع الذي تكون النفس بينهما، هذا بالضبط ما حصل عندما أحسّ بشعور مثَّلتهُ شخصية محمد لمَّا بلغتْ أمه من الكِبَرِ عتيا فكان مضطراً لأن يتركها لدى جيرانهم لتعتني بها زوجة جاره وابنتها (مسعودة) وفي نفس الوقت كانت الفتاة الأجنبية مارغريت قد أُغرِمَ بها لدرجة الهيَام، فلما ذهبت مارغريت للسفر على أن تعود، لم يحدث ذلك وظل ينتظرها بعد أن ملأت قلبه وعقله، ونفس الوقت اضطر لأن يتزوج ابنة جارهم (مسعودة) لكي تعتني بوالدته المريضة، لكن وقع في موقف لا يحسد عليه، فهو كان بين نارين فضميره يؤنبه بشدة اتجاه مسعودة لكونه لا يُحبها ولا يكِنُ لها أي عواطف عكس مارغريت التي كان ينتظرها حاملا لها كلَّ الودّ والحب، فكان في صراع دائم بين ذاته (نفسه) وبين آخره (ممثل في الذي تزوج مسعودة) يقول عن نفسه : " ويقيني بحبّ مارغريت، جعلني أتردد كثيرا في قبول الزواج من مسعودة، كنتُ متأكدا بأنني سأظلمها بزواجي، وأنها لن تأخذ من قلبي سوى وظائفه الحيوية ".[22]

ويستطرد قائلا : " لقد عشت الأسوأ حين وقعتُ بين مخالب تأنيب الضمير تجاه مسعودة، في مقابل حبّي لمارغريت، **عشتُ دائما صراعا بيني وبين آخري الذي رافقها** ".[23]

7/ الأنا المهتمة بالآخر:

كانت ممثلة بشخصية ابراهيم (الأنا) الدليل السياحي الذي كان يعمل على مرافقة السياح، الذي كان من بينهم الفتاة الشقراء، (ميشيل) التي جسدت هنا (الآخر) ، فقد كان سبب هذا الاهتمام الخاص، عندما ذُكر على مسامعها كلمة القنادسة قاصدين بها منطقة مروا بها فتغيرت ملامحها بشكل واضح، ولأن هذه المنطقة هي موطن ابراهيم لاحظ هذا الأمر بوضوح وسجله في ذهنه بتركيز كبير

" من بين الركاب كانت هناك فتاةٌ شقراء، لم تنفك نظراتها منذُ بداية الرحلة تتراوح بين المناظر خلف زجاج نافذة الباص وبين ألبوم صور كانت تحمله، كانت كمن يقوم بعملية مقارنة ما، وظلّت هكذا حتى سمعت سليم يذكر اسم القنادسة، فتغيرت ملامحها فجأة ثمّ راحت تبتسم، ردّ فعلٍ لاحظه إبراهيم وسجله في ذهنه بتركيز كبير ".[24]

ولأن هذا الاهتمام بالآخر (ميشيل) كان كبيرا لاحظ إبراهيم غيابها أثناء السهرة، فتفقدها في خيمتها ليجدها مغمى عليها، ونقلها للمشفى في آخر لحظة من حياتها، وبعد أن تعافت رجعا للمخيم فسألته: كيف علمت بغيابي؟ فكان جوابه: أن السبب هو منطقة القنادسة لما ذُكرتْ على المسامع، فتغيرت ملامحها لتبرر له أنها سبب قدومها للسياحة، وتسرد له أن خالتها مارغريت كانت حبيبة أحد العمال هنا لمّا كانت تعمل بالبلاد سابقا وهدفها لقاءه، وكتتمة لاهتمامه بها (الآخر: ميشيل) راح يُساعدها في كشف الخيوط، وعرف أن المقصود هو جدّه عندما رأى قلادة في الصورة وتذكر برؤيتها في منزلهم.

8/ الأنا المنبهرة بالآخر:

وتظهر حالة الانبهار بالآخر بحكم أن الأنا قد رأت شيئا عكس توقعها فتتولد حالة الاستغراب والاعجاب، فكان هذا بعد لقاء محمد العامل بالمنجم بمديرته مارغريت لأول مرة، و كانت بمثابة صدمة له، لم يتوقع أن يكون مديره امرأة وأيُّ امرأة بل آية في الجمال والرشاقة

" أيعقل أن يكون المدير فتاة؟ ".[25]

هكذا كانت أول ردة فعل له عندما سأل مرافقه بذلك . وكان سبب زيارته لمكتب المدير لتستفسر عن سبب ضربه لأحد العمال بالمنجم.

ويستطردُ مؤكدا بهذا الانبهار والإعجاب الذي ندم أنه جاء متأخراً:

" الحق أنني ندمت كثيرا تلك اللحظة، ليس لأنني ضربتُ رئيس عملي، بل لأنني تأخرت في فعل ذلك، وفي دهشة الوليد الذي يرى وجه القابلة، رحْتُ أطالع هذا الجمال الرباني، ' سبحان الذي خلق فسوّى' ".[26]

والجدير بالذكر أن هذا الانبهار كان طبيعيا بالآخر فهو إضافة لأنه لم يتوقع أن مديره في العمل امرأة ، ولأنه أيضا لم يعتدْ على رؤية مثل هذا الوجوه في قريته المتواضعة (القنادسة)، وقد كان إيجابيا أيضا لأنه يعد حجر أساس لعلاقتهم التي تشكلت مؤخرا بعد هذا اللقاء، والتي حل فيها التفاعل والإعجاب بالآخر من الطرفين، بعد أن كان منبهرا بها.

خاتمة:

واحتوت الرواية مضمون فكري حداثي يحمل صورة الأنا والآخر ممَّا جعل السرد يشتغل على كل ما هو حداثي في التقنية السردية التي نسجت على المقابلة بين عدد من الشخصيات الروائية بتناقل جميل بين الماضي والحاضر، الواقع والمتخيل، حملت الكثير في طياتها من الدلالة

وفي الأخير يمكننا أن نستخلص أهم النقاط التالية:

- عالج الرّوائي " يوسف ميمون " إشكالية العلاقة بين الأنا الحاضرة والآخر السابق في رواية " القصر " ، تلك العلاقة التاريخية الممتدة في الزمن، والتي شهدت ذكريات وأحداث، تم ربط الذكريات الأجيال السابقة باللآحقة في مشهد مميز.
- مستوى الأحداث المتعلقة بأزمة محمد وتردده في بيع البيت الذي يمثل الذاكرة المكانية والذي يحمل ذكريات الآخر(الجدّ).
- اختيار الأب (محمد) ووالده (مختار) للتناوب على الحكي لإعادة تشغيل الصلة المتينة بين الماضي والحاضر أي بين الأنا الحاضر و الآخر الماضي.
- اهتمام الأب بالمخطوط وانفراده به بدل استظهاره مباشرة للأحفاد ممّا يعني أنّ بناء المستقبل يبدأ من إصلاح علاقة الجيل الثاني بالأول وتعريفه على الحقائق المغيبة. جسّد حدث عدم دراية محمّد بأنّ

والده يتقن القراءة والكتابة واعتقاده بأميّة والده وفقا للمصدر الوحيد (ما روّته أمه له) دعوة مضمرة إلى ضرورة الاعتماد على مصادر متعددة للآخر لمعرفة الحقيقة لأنّ المصدر الواحد قد يقدم الحقيقة مغلوطة أو مشوهة أو ناقصة.

- التقاء ميشيل (التي تزور القنادسة لتنفيذ وصية خالتها بتسليم صورتها مع مختار وهو الشيء الوحيد الذي لم يسلم من التلف في ذاكرتها) بإبراهيم يمثل لقاء الأجيال القادمة التي تنفتح على الآخر بصورة أوسع ولكنّها تجهل مساراتها التاريخية فتفقد معها هويتها حتى تستعيدها.

هوامش:

[1] أبو الفضل جمال الدين محمد بن منظور، لسان العرب، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت (لبنان)، ج2، 1991، ص34.
[2] أحمد بن محمد بن علي المقري الفيومي، المصباح المنير، دار المعرفة، القاهرة، ط2، د ت ، ص350.
[3] ابراهيم مصطفى وآخرون، المعجم الوسيط، المكتبة الاسلامية للطباعة والنشر، تركيا، (د ط)، (د ت)، ص28.
[4] بطرس البستاني، محيط المحيط، مكتبة لبنان، لبنان، 1987، ص18.
[5] أحمد ياسين السليماني، التجليات الفنية لعلاقة الأنا بالآخر في الشعر العربي المعاصر، دار الزمان، دمشق سوريا، دط، دت، ص104.
[6] يُنظر إلى: النجار مصلح وآخرون، الدراسات الثقافية والدراسات ما بعد الكولونيالية، 2009، الأهلية للنشر والتوزيع، عمان، ص51.
[7] ميلاد حنا، قبول الآخر فكر واقتناع وممارسة، دار الشروق، القاهرة، مصر، ط1، 1998، ص90.
[8] يُنظر إلى مقال ل: خليل عودة، جدلية العلاقة بين الأنا والآخر في سيناريو جاهز لمحمود درويش، جامعة النجاح، ص1.
[9] يوسف العيشي ميمون، القصر(سيرة دفتر منسي)، منشورات الوطن، 2020، ص16-18.
[10] المصدر نفسه ، ص:19-20.
[11] المصدر نفسه ، ص:14.
[12] المصدر نفسه ، ص:11.
[13] المصدر نفسه ، ص: 14-15.
[14] المصدر نفسه ، ص:108.
[15] المصدر نفسه ، ص:73.
[16] المصدر نفسه، ص: 73.
[17] نفس المصدر، ص: 108.
[18] المصدر نفسه ، ص:44.
[19] المصدر نفسه ، ص:44.
[20] المصدر نفسه ، ص: 79-80 .

[21] المصدر نفسه ، ص: 114.
[22] المصدر نفسه ، ص:173- 174.
[23] المصدر نفسه ، ص:174.
[24] المصدر نفسه ، ص:174.
[25] المصدر نفسه ، ص:75.
[26] المصدر نفسه، ص:75.

المراجع:

1. أبو الفضل جمال الدين محمد بن منظور، لسان العرب، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت (لبنان)، ج2، 1991.
2. أحمد بن محمد بن علي المقري الفيومي، المصباح المنير، دار المعرفة، القاهرة، ط2، دت.
3. ابراهيم مصطفى وآخرون، المعجم الوسيط، المكتبة الاسلامية للطباعة والنشر، تركيا، (د ط)، (د ت).
4. بطرس البستاني، محيط المحيط، مكتبة لبنان، لبنان، 1987.
5. أحمد ياسين السليماني، التجليات الفنية لعلاقة الأنا بالآخر في الشعر العربي المعاصر، دار الزمان، دمشق سوريا، دط، دت.
6. النجار مصلح وآخرون، الدراسات الثقافية والدراسات ما بعد الكولونيالية، الأهلية للنشر والتوزيع، عمان، 2009.
7. ميلاد حنا، قبول الآخر فكر واقتناع وممارسة، دار الشروق، القاهرة، مصر، ط1، 1998.
8. مقال ل: خليل عودة، جدلية العلاقة بين الأنا والآخر في سيناريو جاهز لمحمود درويش، جامعة النجاح.
9. يوسف العيشي ميمون، القصر(سيرة دفتر منسي)، منشورات الوطن، الجزائر، 2020.